

المصطلحات البلاغية في كتاب "العمدة"

د. محمد محيي الدين

جامعة تلمسان

إذا تتبعنا تاريخ البلاغة العربية، وقفنا على أسماء كثير من العلماء الذين شاركوا في اكتشاف فنونها ووضع مصطلحاتها. من هؤلاء العلماء: الجاحظ، وابن المعتز، وقدامة، وأبو هلال، والحاملي، والسكاكي، والقزويني، وغيرهم. وإذا كان ابن رشيق معروفاً في تاريخ النقد الأدبي، فإنه خليف بأن يُعدّ من علماء البلاغة. وذلك بما تضمّنه كتابه "العمدة" من مباحث بلاغية، بعضها جديد، يحقّ لنا أن نستدلّ به على مساهمة علماء المغرب في هذا المجال.

فلقد احتوى كتاب "العمدة" على أبواب كثيرة في البلاغة، أجمل المؤلف في بعضها ما وجدته في كتب السابقين، ناقلاً كثيراً من مصطلحاتهم وتعريفاتهم وكثيراً من شواهدهم. وتكلّم في بعض تلك الأبواب على ألوان بلاغية أخرى سبق غيره إلى اكتشافها ووضع أسماء لها، نقلها عنه علماء المشرق.

وعلى أن ابن رشيق قد تكلّم طويلاً على البلاغة وفنونها، فإنّ هدفه من ذلك لم يكن هو البحث البلاغي لذاته، وذلك على نحو ما نجد عند عدّة علماء، كالخطيب القزويني مثلاً، وإنما كان هدفه -فيما يبدو- هو بيان ما لهذه الوسائل التعبيرية والفنية من أثر في الشعر.

ويمكن أن نصنّف ما ورد في كتاب "العمدة" من مصطلحات بلاغية كما يلي:

أولاً - المصطلحات المشرقية:

تبدو هيمنة المشرق واضحة على ما تضمّنه كتاب العمدة من مباحث بلاغية؛ فلم يكد ابن رشيق يتجاوز، إلّا قليلاً، الأسماء التي أطلقها علماء المشرق على الفنون البلاغية التي عرفوها. وهكذا نجده يستعمل، مثلهم، تلك المصطلحات، كالبلاغة، والبيان، والبديع، والتشبيه، والحقيقة، والمجاز، والاستعارة، والكناية، والإيجاز، والمساواة، والمطابقة، والمقابلة، والتصدير، والتبعية، والتتميم، والترديد، وغيرها.

على أنّ ابن رشيق، وإن نقل كثيراً من المصطلحات المشرقية، وقلّد علماء المشرق في تعريفاتهم للألوان البلاغية التي أطلقوا عليها تلك الأسماء، لم يقف موقف الناقل دائماً، وإنّما كان له غير ما تدخّل. وفي ذلك ما يدلّ على أصالة، ومشاركة في تطوير علوم البلاغة وتصحيح مصطلحاتها.

ويمكن المتتبّع لما استخدمه ابن رشيق من مصطلحات مشرقية أن يلاحظ ما يلي:

– كان ابن رشيق، عندما يتناول لوناً بلاغياً، يذكر الأسماء التي أطلقت على ذلك اللون. وقد يذكر أسماء العلماء الذين أطلقوا تلك الأسماء. يقول في "الاستثناء": "وابن المعتز يسميه توكيد المدح بما يشبه الذم"⁽¹⁾، ويقول في "الإيغال": "والحاتمي وأصحابه يسمونه التبليغ"⁽²⁾، ويقول في "الالتفات": "وهو الاعتراض عند قوم؛ وسمّاه آخرون الاستدراك"⁽³⁾، ويقول في "التسليم": "وقدّامة يسميه التوشيح. وقيل: إنّ الذي سمّاه تسهيماً عليّ بن هارون المنجم؛ وأمّا ابن وكيع فيسميه المَطْمَع"⁽⁴⁾...

- يبدو من عناوين الأبواب، ومن بعض أقوال ابن رشيق، أنه كان يفضل بعض المصطلحات على بعض؛ فهو يفضل مصطلح "التبعية" على مصطلح "التجاوز"⁽⁵⁾، ومصطلح "التصدير" على مصطلح "ردّ العجز على الصدر"⁽⁶⁾، ومصطلح "التمثيل" على مصطلح "المماثلة"⁽⁷⁾...

- نجد ابن رشيق يبين، في كثير من الأبواب، أسباب تسمية الألوان البلاغية. ومن الأمثلة على ذلك قوله، معللاً تسمية بعضهم "التسهيم" "مطمعاً": "فأما تسميته المطمع، فذلك لما فيه من سهولة الظاهر وقلة التكلف؛ فإذا حوّل امتنع وبعد مرّاه"⁽⁸⁾. ويقول، مجتهداً في تعليل تسمية أحد الألوان "تسهيماً": "وما أظنّ أنّ هذه التسمية إلاّ من تسهيم البرود؛ وهو أن ترى ترتيب الألوان فتعلم، إذا أتى أحدها، ما يكون بعده"⁽⁹⁾...

- يبين ابن رشيق أخطاء بعض العلماء السابقين في المصطلحات أو في إطلاقها، ويصحّح تلك الأخطاء. يقول في تعريف الاستطراد: "هو أن يرى الشاعر أنه في وصف شيء وهو إنما يريد غيره، فإن قطع أو رجع إلى ما كان فيه فذلك استطراد، وإن تمادى فذلك خروج. وأكثر الناس يسمّي الجميع استطراداً؛ والصواب ما بينته"⁽¹⁰⁾. ويقول في "التفصيل": "ومن الحشو نوع سمّاه قُدّامة التفصيل -بالفاء-، وزعم قوم أنه بالعين... وجعله آخرون بالعين وضاد معجمة... وظاهر البيت الذي أنشده قُدّامة يدلّ على أنه التفصيل -بالفاء-"⁽¹¹⁾.

- غلبة الأدب المشرقيّ على الأمثلة التي يوردها ابن رشيق على الألوان البلاغيّة التي يتكلّم عليها. على أنّ هذه ظاهرة عامّة، نجدّها في مؤلّفات النقاد والبلاغيّين المغاربة، كالنهشليّ، والحصريّ، وابن شرف، والقزاز.

ثانيا: المصطلحات المغربيّة:

يجد المتبعّ لكتاب "العمدة" مجموعة من المصطلحات البلاغيّة، بعضها من وضع ابن رشيق، وبعضها الآخر من وضع غيره من علماء المغرب. فأما المصطلحات التي وضعها ابن رشيق، فهي نوعان: مصطلحات لألوان بلاغيّة اكتشفها هو، ومصطلحات لألوان سبقه إلى اكتشافها علماء المشرق. فمن الألوان البلاغيّة التي اكتشفها وأطلق عليها أسماء خاصّة: الاطراد، والتورية، والتغاير، والتفريع، والاشتراك⁽¹²⁾. وفيما يلي بيان لتلك الألوان:

1- الاطراد:

هو -لغة- التابع. وهو -كما عرفه ابن رشيق-: "أن تطرد الأسماء من غير كلفة، ولا حشو فارغ"⁽¹³⁾، أو هو - كما عرفه الخطيب القزويني -: "أن يأتي [الشاعر أو غيره] بأسماء الممدوح، أو غيره، وآبائه على ترتيب الولادة من غير تكلف في السبّك حتى تكون الأسماء في تحدّرها كالماء الجاري في اطراده وسهولة انسجامه"⁽¹⁴⁾.

وهو محسنٌ بديعيّ يتفاوت بتفاوت الشعراء طبعاً وكُلْفَةً. قال ابن رشيق: "فإنّها (أي الأسماء)، إذا اطّردت، دلّت على قوّة طبع الشاعر وقلة كُلفته ومبالاته بالشعر"⁽¹⁵⁾.

وقد استشهد ابن رشيق ببيت للأعشى⁽¹⁶⁾.

وقد علّق عليه بقوله: "أتى كالماء الجاري اطّراداً وقلة كُلفته، وبين النسب حتّى أخرجه عن مواضع اللبس والشبهة"⁽¹⁷⁾.

ومن تلك الأمثلة: قولُ دُرَيْد بن الصّمّة:

قَتَلْنَا بَعْدَ اللَّهِ خَيْرَ لَدَاتِهِ ذَوَابَ بَنِ أَسْمَاءَ بَنِ زَيْدِ بْنِ قَارِبِ⁽¹⁸⁾
وذكر ابن رشيق أنّ الخليفة الأمويّ، عبد الملك بن مروان، "قال، كالمتعجب، لما سمعه:
لولا القافية لبلغ به آدم!"⁽¹⁹⁾.

وذكر الخطيب القزوينيّ من الأمثلة على الاطّراد قول النبي -ص- في الإشادة
بيوسف- عليه السلام- ونسبه: "الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ، يوسفُ بنُ يعقوبَ
بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيم"⁽²⁰⁾.

وإذا كان ابن رشيق قد نوّه بهذا المحسن وأورد أمثلة جيّدة، فإنّه قد جاء كذلك بأمثلة
أخرى فيها بعض العيوب⁽²¹⁾.

2 - التورية:

التورية هي - كما عرفها البلاغيّون من بعدُ - "أن يُطلقَ لفظٌ له معنيان: قريب، وبعيد؛
ويُراد به البعيد"⁽²²⁾.

إلا أن التورية التي اكتشفها ابن رشيق في أشعار العرب، وأطلق عليها هذا الاسم، هي - كما يعرفها-: "كناية بشجرة، أو شاة، أو بيضة، أو مَهْرَة، أو ما شاكل ذلك" (23).

ومن الأمثلة التي استشهد بها أبيات لحُميد بن ثور الهلالي يَكْنِي فيها عن امرأة، وذلك بعد أن منع عمر-رضي الله عنه- الشعراء من ذكر النساء في أشعارهم. يقول حميد من تلك الأبيات، شاكياً أهل تلك المرأة:

وَمَالِي مِنْ ذَنْبِ إِلَيْهِمْ عَلِمْتُهُ
سَوَى أَنِّي قَدْ قُلْتُ: يَاسْرَحَةُ
ومن تلك الأمثلة قول عنترة بن شداد:

يَا شَاةَ مَا قَصَصَ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ
حَرَمْتُ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمِ (25)
وفيه كنى عن امرأة بالشاة.

وذكر ابن رشيق بيتاً من معلّقة امرئ القيس كنى فيه الشاعر عن امرأة بالبيضة، هو قوله:

وَبَيْضَةَ حَدَرٍ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا
تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوِهَا غَيْرَ مُعْجَلٍ (26)
كما ذكر أبياتاً أرسلها أحدهم إلى عمر-رضي الله عنه- يَكْنِي فيها عن النساء بالقلص، وهي النوق الشواب (27).

3- التغاير:

يعرفه ابن رشيق بقوله: "هو أن يتضادَّ المذهبان في المعنى حتى يتقاوما، ثم يصحّا جميعاً" (28).

ويذكر أن "ذلك من افتنان الشعراء، وتصرفهم، وغوص أفكارهم" (29).

ومن الأمثلة التي أوردتها: قول أحد الشعراء، مفضلاً القلم على السيف، وقول المتنبي،

ذاهباً مذهباً آخر. يقول الأول:

كَذَا قَضَى اللَّهُ لِلْأَقْلَامِ مَذْ بُرَيْتَ أَنَّ السُّيُوفَ لَهَا، مَذْ أُرْهِفَتْ، خَدَمُ⁽³⁰⁾

ويقول الثاني:

حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ لِي: الْمَجْدُ لِلسَّيْفِ لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلَمِ

أَكْبَرُ مِنْ أَلْفِ أَكْبَرٍ فَالْمَعْنَيَانِ مُتَضَادَّانِ، وَلَكِنْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَحِيحٌ.⁽³¹⁾

ومن الأمثلة التي جاء بها ابن رشيق: قول أبي تمام، مفضلاً التكرم على الكرم المطبوع؛

وقول غيره مفضلاً الكرم المطبوع على التكرم. يقول أبو تمام:

قَدْ بَلَوْنَا أَبَا سَعِيدٍ حَدِيثًا وَبَلَوْنَا أَبَا سَعِيدٍ قَدِيمًا
فَعَلِمْنَا أَنَّ لَيْسَ إِلَّا بِشَقِّ النَّفْسِ صَارَ الْكَرِيمُ يُدْعَى كَرِيمًا⁽³²⁾
ويقول أحد الشعراء:

جَمَعَ الْفَضَائِلَ وَالْمَحَامِدَ وَالْعُلَا خُلِقَ - لَعَمْرُ أَبِيكَ - غَيْرُ تَخَلُّقِ⁽³³⁾
فَالْمَذْهَبَانِ مُتَضَادَّانِ فِي الْمَعْنَى، وَلَكِنَّهُمَا صَحِيحَانِ مَعًا.

على أن ابن رشيق يورد مثلاً يُعَدُّ من "مليح التغاير"، هو قول أبي الشيص:

أَجْدُ الْمَلَامَةِ فِي هَوَاكَ لَذِيذَةٌ حُبًّا لَذِكْرِكَ، فَلْيَلْمَنِي الْيَوْمُ
وقول المتنبي في خلافه:

أَحَبُّهُ وَأَحَبُّ فِيهِ مَلَامَةٌ؟
إِنَّ الْمَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ (34)
وَيُعَلِّقُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: "وهذا، عند الجرجاني، هو النظر والملاحظة؛ وهو يعدُّه في باب السرقات" (35).

فهل يدلّ هذا القول على أنّ مكتشف هذا اللون البديعيّ هو الجرجانيّ لا ابن رشيق، وأنّ ابن رشيق ليس له من فضل سوى إطلاق اسم جديد عليه؟
إنّ المتأمّل لتعريف ابن رشيق للتغاير، ولما أورده من أمثلة، ينتهي إلى أنّ اللون البلاغيّ الذي يقصده، هو، أوسع من "النظر والملاحظة"، اللون الذي ذكره الجرجانيّ؛ فالتغاير قد يكون بين معنيين لا صلة لصاحب أحدهما بصاحب الآخر. وقد يكون قريباً من توارد الخواطر لولا تضادّ المعنيين. وليس كلّ من أتى بمعنى مضادّ لمعنى سابق يكون قد نظر إلى ذلك المعنى وقصد إلى مخالفته.

4- التفرّيع:

عرّفه ابن رشيق بقوله: "[هو] أن يقصد الشاعر وصفاً ما، ثم يفرّع منه وصفاً آخر يزيد الموصوف توكيداً" (36).

ومن الأمثلة التي أوردها عليه: قول الكُمَيْت:

أَحْلَامُكُمْ لِسِقَامِ الْجَهْلِ شَافِيَةٌ كَمَا دِمَاؤُكُمْ يُشْفَى بِهَا الْكَلْبُ (37)
وقال موضحاً: "وصف شيئاً، ثم فرّع شيئاً آخر لتشبيهه شفاء هذا بشفاء هذا" (38).

ومن الأمثلة على التفريع التي أعجب بها ابن رشيق قول المتنبي:

أُقْلِبَ فِيهِ أَجْفَانِي كَأَنِّي أَعُدُّ بِهِ عَلَى الدَّهْرِ الذُّنُوبَا (39)
فقد وصفه بأنّه "لطيف التفريع"، وقال موضحاً: "بينما هو يصف كثرة سهره وإدارة لحظه، شبهها بكثرة ذنوب الدهر عنده" (40).

وإذا كان التفريع نوعاً من الاستطراد - كما ذكر ابن رشيق⁽⁴¹⁾ -، اكتشفه هو، وسمّاه كذلك، فإنّ من الباحثين من يرى أنّ التفريع هو الاستطراد نفسه الذي اكتشفه أبو هلال العسكري، ويذهب إلى أنّ تعريف ابن رشيق لهذا النوع من الاستطراد هو تعريف العسكري للاستطراد⁽⁴²⁾. إلّا أنّ من يوازن بين التعريفين يجد بينهما فرقاً واضحاً؛ فتعريف العسكري هو: "أن يأخذ المتكلّم في معنى؛ فبينما يمرّ فيه يأخذ في معنى آخر، وقد جعل الأوّل سبباً إليه" (43)، بينما تعريف ابن رشيق للتفريع هو - كما ذكرناه سابقاً - "أن يقصد الشاعر وصفاً ما، ثمّ يفرّع منه وصفاً آخر يزيد الموصوف توكيداً" (44).

وعلى ذلك، فالتفريع - في رأينا - من الأنواع التي اكتشفها ابن رشيق ووضع لها أسماء. وعنه أخذه البلاغيّون الذين أتوا من بعده. (يذكره القزويني في كتاب "الإيضاح" ويعرّفه بقوله: "هو أن يُثَبَّتَ لِمَتَعَلِّقٍ أَمْرٌ حُكْمٌ بَعْدَ إِثْبَاتِهِ لِمَتَعَلِّقٍ لَهُ آخَرٌ" (45). ويمثّل له بقول الكُميت، السابق، ويعلّق على ذلك بقوله: "فرّع من وصفهم بشفاء أحلامهم لسقام الجهل، وصفهم بشفاء دمائهم من داء الكلب" (46).

ومن الألوان البلاغيّة التي كانت معروفة، ولكنّه أطلق عليها أسماء جديدة ما يلي:

الاستدعاء:

يعرفه ابن رشيق بقوله: "هو ألا يكون للقافية فائدة إلا كونها قافية فقط، فتخلو حينئذ

من المعنى"⁽⁴⁷⁾.

ومن الأمثلة التي أوردها عليه: قول عدي القرشي:

وَوُقِيتَ الْحُتُوفَ مِنْ وَارِثٍ وَ لِ، وَأَبْقَاكَ صَالِحاً رَبُّ هُودٍ⁽⁴⁸⁾
ووضح "الاستدعاء" بقوله: "فإنه لم يأت لهود -عليه السلام- هنا معنى إلا كونه

قافية"⁽⁴⁹⁾.

وإذا كان من الباحثين من يعدّ الاستدعاء محسناً بديعياً⁽⁵⁰⁾، فإنّ غيره لا يراه كذلك،

"لأنه لا يأتي لتحسين اللفظ أو تحسين المعنى، وإنما يأتي فقط لمجرد القافية التي يستدعيها

البيت"⁽⁵¹⁾.

وأما المصطلحات التي وضعها غير ابن رشيق من علماء المغرب، فلم أجد منها إلاّ

مصطلحاً واحداً، وضعه أستاذه عبد الكريم النهشلي. وهذا المصطلح هو "المضادة"⁽⁵²⁾. وقد

أطلقه النهشلي على نوع من التصدير (ردّ العجز على الصدر). اكتشفه ومثّل له بقول الفرزدق:

أَصْدِرْ هُمُومَكَ لَا يَغْلِبُكَ وَارِدُهَا فَكُلُّ وَارِدَةٍ، يَوْمًا، لَهَا صَدْرُ⁽⁵³⁾

الهوامش

- (1) ابن رشيّق: "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده"، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الجيل، ط4، 1972م، ج2، ص48.
- (2) م. ن.، ص57.
- (3) م. ن.، ص45.
- (4) م. ن.، ص31.
- (5) ينظر: م. ن.، ج1، ص313.
- (6) ينظر: م. ن.، ج2، ص3.
- (7) ينظر: م. ن.، ج1، ص305.
- (8) م. ن.، ج2، ص34.
- (9) م. ن.
- (10) م. ن.، ص39.
- (11) م. ن.، ص72.
- (12) يستبعد الدكتور عبد القادر حسين أن يكون ابن رشيّق قد اكتشف بعض الألوان البديعية. ويستدلّ على ذلك بما ذكره ابن رشيّق في مقدّمة كتاب "العمدة" من أنّه لم يبتكر شيئاً. ينظر: "المختصر في تاريخ البلاغة"، بيروت: دار الشروق، ط1، 1402هـ-1982م، ص141.
- (13) م. ن.، ص82.
- (14) الخطيب القزويني: "الإيضاح"، بيروت: مؤسّسة الكتب الثقافية، ط2، د. ت.، ص214.
- (15) ابن رشيّق: م. س.، ج2، ص82.
- (16) م. ن.
- (17) م. ن.
- (18) م. ن.
- (19) م. ن.
- (20) م. س.، ص214-215.

- (21) ينظر: ابن رشيّق: م. س.، ص 65-66.
- (22) الخطيب القزويني: م. س.، ص 199.
- (23) ابن رشيّق: م. س.، ج 1، ص 311.
- (24) م. ن.
- (25) م. ن.، ص 312.
- (26) م. ن.
- (27) ينظر: م. ن.، ص 312-313.
- (28) م. ن.، ج 2، ص 100.
- (29) م. ن.
- (30) م. ن.، ص 102.
- (31) م. ن.
- (32) م. ن.، ص 101.
- (33) م. ن.، ص 102.
- (34) م. ن.، ص 103.
- (35) م. ن.
- (36) م. ن.، ص 42.
- (37) م. ن.
- (38) م. ن.
- (39) م. ن.، ص 43.
- (40) م. ن.
- (41) ينظر: م. ن.، ص 42.
- (42) ينظر: عبد القادر حسين: م. س.، ص 143.
- (43) أبو هلال العسكري: "كتاب الصناعاتين"، تحقيق مفيد قميحة، بيروت: دار الكتب العلميّة، ط 1، 1401هـ-1981م، ص 448.
- (44) ابن رشيّق: م. س.، ج 2، ص 42.
- (45) الخطيب القزويني: م. س.، ص 209.

(46) م. ن.

(47) ابن رشيق: م. س.، ج2، ص73.

(48) م. ن.

(49) م. ن.

(50) مثل عبد العزيز عتيق. ينظر كتابه: "في تاريخ البلاغة العربيّة"، بيروت: دار النهضة العربيّة، د. ط.، د. ت.، ص234.

(51) عبد القادر حسين: م. س.، ص143.

(52) ينظر: ابن رشيق: م. س.، ج2، ص4.

(53) م. ن.